

عبد خالص

المودد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWHEEL.COM

أسرة المطبعة

قبتان محروطينتان من بغداد

بقلم
عطاء محمد صالح العبدى

الدار الوطنية للتوزيع والاطلاع - بغداد

نبذة تاريخية

ان دراسة الطبيعة الجغرافية لوسط وجنوب العراق توضح لنا ان هناك ثمة عوامل طبيعية وبيئية قد تحكمت في اساليب البناء نتيجة لندرة مسواد انشائية معينة ووفرة اخرى وفي دراستنا للقباب وما لوفرة مادة الطين بكميات هائلة في هذا الوسط وندرة مادة مهمة كالخشب والحجر دفعت المعمار العراقي القديم الى ابتكار فنون معمارية جديدة في تسقيف الابنية وذلك باستخدام العقود والاقبية عوضا عن السطوح المستوية والاستغناء عن استخدام الاعمدة والدعائم طالما ان مادة الطين بطبيعتها مادة مرنة تعطي البناء القدرة والكفاءة في التحوير والتحكم ، ان هذا العامل لعب دورا كبيرا في تحديد انواع وفن العمارة في العراق .

لذلك فان دراسة مراحل التطور التقني والحضاري لوادي الرافدين الذي كان له اوفر نصيب في بلوغ النضج الحضاري واقامة حضارة اصيلة في تاريخ البشرية مقارنة بالحضارات الاخرى التي قامت الى جانب حضارة وادي الرافدين ، توضح لنا ان الانسان في هذه المنطقة ابتدع كل ما هو جديد في الفنون المعمارية وعلى ذلك يمكن ان نجد اصول الابنية المقيمة في العمار القديمة التي شيّدت في بلاد وادي الرافدين ومنها انتشرت الى العالم القديم .

فالقبة اذن عنصر عماري محوري عن فنون الازج (١) المعمارية التي تعد من اهم الخصائص البنائية

(١) الازج : ضرب من الابنية ومصطلح عماري للدلالة على كل بناء شيّد مقوسا . « الفيروز ابادي القاموس المحيط

المميزة لابنية وادي الرافدين عن سواها « فابتداع التاريخ في البناء وحز الحناجر كان فنحا عظيما في الفن العماري فهو يساوي اختراع العجلة في الاته وادواته مع اشتهار الرومان ببناء القناطر التي هي حناجر وبيضاء عقود الظفر المعروفة باقواس النصر ، فاول من ابتدع الحفر والتاريخ والتقويس في البناء هم سكان وادي الرافدين القدامى « (٢) .

فقد هدتنا التنقيبات الانسرية الى نمط التسقيف في ابنية مرحلة القرى الزراعية المتطورة « الالفين السادس والخامس قبل الميلاد » (٣) ، فحفرات تل حسونة اثبتت لنا ان السقف كان مسلما بينما ظهر في عصر حلف (٤) على شكل قبة (٥) .

وقد دلت الحفرات التي اجريت في موقع الاربعية (٦) عن بناء القبة واورد الاستاذ ملوان

ج ١ ص ١٧٧ - دار الفكر - بيروت « والدكتور مصطفى جواد ، سومر ٢٥ ص ١٦٤ بغداد - ١٩٦٩ .

(٢) الخيرة : عند الطال المبني والقوس او بلاور والمقد المصروب ليس بملك العربي . « الفيروز ابادي القاموس المحيط ج ٢ ص ١٤ - دار الفكر - بيروت « د . مصطفى جواد ، سومر ٢١ ص ١٦٤ بغداد - ١٩٦٩ .

(٣) فواد سفر سومر ١ ج ٢ ص ٢١ بغداد - ١٩٤٥ .

(٤) تقع قرية حسونة على نحو ٥ كم في الضفة اليمنى لدجلة وعلى ٢٥ كم جنوب الموصل ، نقت فيها مديرية الآثار العراقية في عامي ١٩٤٣ - ١٩٤٤ وهي قرية كبيرة في العصر الحجري الحديث يقدر تاريخها بنحو (٥٨٠٠ - ٥١٠٠ ق . م) .

(٥) يقع تل حلف في شمال سوريا على ٥ كم جنوب حمص راس العين قرب منبع الخابور نقت فيها بقعة المانية عن متحف برلين سنة ١٩١٠ ، ١٩١٣ ، ١٩٢٩ .

(٦) الاربعية : موقع الري يقع بالقرب من اطلال نينوى ويرجع تاريخه الى (١٩٠٠ - ٢٠٠ ق . م) .

نماذج مختلفة لها وأشار إلى أن الطراز ، أي بناء القبة يختلف من مكان لآخر فهناك نموذج بشكل قبة دائرية وآخر بشكل قبة مخروطية (٧) .

وقد وجد الأستاذ ليونارد ولي في المقبرة الملكية بـ اور في العهد السومري «الالف الثالث ق.م» نماذج لسقوف معفودة بشكل اقبية وقبساط مخروطية .

نما في المصدر الإسلامي فإن أقدم مثال عراقي لقباب ما زال قائماً فيه هو قبة قصر الأخيضر التي تعود إلى النصف الأول من القرن الثاني للهجرة . .
نما أقدم قبة إسلامية في بغداد ذكرها لنا المؤرخون العرب فهي : قبة قصر المنصور ، الخضراء

أن خير من وصف قصر المنصور وقبته الخضراء هو الخطيب البغدادي حيث روى أنه : « كان في صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه إلى حد عقد القبة عشرون ذراعاً تصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعاً » ويضيف أنه كان على رأس القبة الخضراء تمثال فارس عليه فارس في يده رمح يتجه مع الريح ، وكانت ترى من أطراف بغداد .

ويذكر لنا الخطيب أن قبة المنصور بقيت قائمة حتى سقط رأسها في يوم الثلاثاء لسبع خلون من جماد الآخر سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وكان ليأتلد مطر عظيم ورعد هائل وبرق شديد وكانت هذه القبة تاج بغداد وعلم البلد ومآثرة من مآثر بني العباس ، بنيت أول ملكهم وبقيت إلى هذا الوقت « إلى آخر الأمر الوائق » (٨) .

ويذكر لنا ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٥٢ أن سبب سقوط القبة الخضراء هو الفرق العام الذي خرب مدينة بغداد ، حيث كانت تتعرض لفيضانات مستمرة وبالتأكيد أن تأثير المياه على العمران كان كبيراً (٩) .

أن ما يعنيننا من هذا الموضوع هو دراسة قبتي زمرد خاتون وأنسهروردي وهما « وأمثالهما من القباب المخروطية تكاد تكون خاصة بمشاهد

M.E.I. Mallawan and Jerviklovnd (٧)
Rose, Excavations at Tell Arpa-
chiyah Iraq Volc. 11, Part LPP,
25 Lonlan 1935.

(٨) الخطيب ج ٧٢/١ طبع المكتبة السلفية - الرياض .
(٩) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٧٠٢ .

الائمة والكبراء والكبيرات منذ زمن العباسيين » ، وقد انتشرت في العراق في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن السابع الهجري ومما بقي منها في العراق قائماً حتى الآن ثمان عشرة قبة وفي الغالب تكون قبة الضريح منفردة وقد تكون ملحقة بمدرسة أو جامع ، وتكون شرفة الضريح على الأكثر ثمانية اضلاع لان كثرة الاضلاع في الشكل المضلع تعني غالباً قيام بناء مخروطي وتأتي بعدها الثرية الرباعية الاضلاع .

والقباب المخروطية أنواع منها ذات المقرنصات من داخل البناء وخارجه وهو السائد ويكون هذا المخروط صفوفاً من المقرنصات تستمر حتى نهاية القبة ويكون الشكل الخارجي مشابهاً للشكل الداخلي ومن القباب ما تكون مخروطاً من الداخل وهي مضلعة من الخارج وهذا النوع يكون على شكل قبتين داخلية وخارجية بينهما فراغ . كما في قبة يحيى أبي القاسم في الموصل .

قبة السيدة زمرد خاتون

تقع قبة السيدة زمرد خاتون في الجانب الغربي من مدينة بغداد « جانب الكرخ » إلى الجنوب الغربي من ضريح الشيخ معروف الكرخي في وسط المقبرة المعروفة باسمه (١٠) .

يعرف الضريح - عند العامة - باسم الست زبيدة ولا زال . وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الضريح وأغلب الآراء لا تنسبه إلى السيدة زبيدة - بنت أبي جعفر المنصور ، فقد رأى الرحوم الأستاذ عباس المزاري في كتابه تاريخ العراق بين احتلالين أن الضريح يعود إلى زبيدة بنت هارون الجوني المتوفاة سنة ٧٠٦ هـ (١١) في حين يذكر لنا الأب أنستاس الكرمل في الضريح تعود نسبته إلى زبيدة خاتون ابنة السلطان بركياروق زوجة السلطان مسعود بن السلطان ملكشاه المتوفاة سنة ٥٢٢ هـ ويؤيد هذا الرأي الأستاذ عبدالرزاق الحسني (١٢) .

(١٠) تسمى المقبرة التي دفن فيها الشيخ معروف الكرخي بمقبرة باب الدبر . ثم بنيت له ثرية واحترقت عام ٢٥٩ هـ ثم أمر الخليفة القائم بأمر الله بعمارة المكان .
« د . مصطفى جواد ، المعاصر الإسلامية العتيقة سومر م ٢ سنة ١٩٢٧ » .

(١١) عباس المزاري / تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٤٠٦ .

(١٢) الأب أنستاس ماري الكرمل في لغة العرب مج ٦ ص ٧٥٥ .
دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ ص ١٧ (حاشية) .

ويرى السيد محمود شكري الالوسي انه ربما كان يمثل ثرية لزوجته او بنت احد الامراء او ملك من الملوك أي لا صلة له بالسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد (١٢) .

اما الدكتور مصطفی جواد فينسب الضريح الى السيدة زمرد خاتون ام الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩ هـ وهو الرأي الراجح الذي تؤكد الروايات التاريخية (١٤) .

تقوم قبة السيدة زمرد خاتون على قاعدة تتكون من ثمانية اضلاع لان كثرة الاضلاع في الشكل المضلع تساعد كثيرا على قيام بناء مخروطي عليها أي قيام دوائر في البنية متضائلة شيئا فشيئا حتى تنتهي بسماوته أي بنقطة اعلاه (١٥) انظر صورة رقم (١) .

يتوسط احد اضلاع القبة مدخل تتقدمه غرفة مربعة تعود الى فترة متأخرة من العهد العثماني كما يدل على ذلك طرازها المعماري حيث سقفت بقباب نجمية الشكل عرفت بالصينية ، وهو طراز شائع في بغداد في تلك الفترة (١٦) .

تقوم القبة على جدران صلبة ثمانية الاضلاع مبنية بالاجر والجص ، اما خارجها فتزينها زخارف اجرية بسيطة محفورة حفرا قليل الفور ومكونة من نجوم وبعض الاشكال الهندسية والزخارف النباتية . انظر صورة رقم (٢) .

وشكل رقم (١) الذي يمثل نماذج لحشوات زخرفية اجرية .

وفي ظاهر كل وجه من اوجه القاعدة الثمانية بابان معيان وفي صورتها التي صورت قبل سنة ١٨٥٠ اربعة ابواب معماة اثنان من فوق واثنان من تحت ولم تحافظ هذه العمارة على شكلها القديم نتيجة الترميمات الحاصلة عليها ولعدة مرات (١٧) . اما ظاهر القبة فقد غطي بالجص .

(١٢) محمود شكري الالوسي : تاريخ مساجد بغداد واثارها ص ١٢٩ .

(١٤) د . مصطفى جواد : سادات البلاط العباسي ص ١٨١ .
د . مصطفى جواد : المعائر الاسلامية المتبعة سومر ٢ سنة ١٩٢٧ .

(١٥) د . مصطفى جواد / المعائر الاسلامية المتبعة سومر ٢ سنة ١٩٢٧ .

(١٦) عطا العديشي / هناء عبدالخالق - القباب المخروطية في العراق ص ٢٩ .

(١٧) د . مصطفى جواد المعائر الاسلامية المتبعة سومر ٢ سنة ١٩٢٧ .

تتراوح اطوال اضلاع المثلث ما بين ٢/٧٢ م - ٢/٩٢ م وهذا الاختلاف في الاطوال منسب من الترميمات العديدة التي اجريت عليها خلال الازمان . يتوسط الضلع الشمالي الشرقي مدخل القبة الاصلي والى يساره درج البناء قد فتح من صلب الجدار يؤدي الى سطح البناء .

يبلغ ارتفاع اضلاع الشكل المثلث اي الجدران الحاملة للقبة ٤/٨٠ م وهي قائمة ليس بها اي عيب .

تقوم في اعلى زاوية المثلث مقرنصات معقودة ومركبة لتكون منطقة الانتقال من الشكل المثلث الى القاعدة الدائرية . وتتكون من ثلاثة صفوف متتالية الواحد فوق الاخر تنتهي بقاعدة نجمية ذات ستة عشر راسا . انظر صورة رقم (٣) .

هناك اختلاف واضح في مقرنصات منطقة الانتقال عنها في مقرنصات انحناء القبة وهذا الاختلاف منسب من الغرض المعماري في احداثها .

فمقرنصات منطقة الانتقال هو تحويل القاعدة المثلثة الى قاعدة ذات ستة عشر ضلعا كما ان التثبيت على قواعد ذات ستة عشر راسا تبدأ من ارتفاع ٩/٥ م ففي هذه الحالة يكون ارتفاع منطقة الانتقال ٤/٧٠ م .

تكون مقرنصات القبة الدائرية عشرة صفوف متتالية يحوي كل صف من الصفوف السبعة الاولى ستة عشر مقرنصا (١٨) .

بينما تحوي الصفوف الثلاثة الاخرى ثمانية مقرنصات لكل منها .

يتم الانتقال من السابع الى الثامن بعقود صغيرة تجمع رؤوس كل مقرنصين متجاورين ويفصل بين كل ضلعين من صفوف مقرنصات القبة قاعدة نجمية ذات ستة عشر راسا في الصفوف السبعة الاولى وذات ثمانية رؤوس في الصفوف الثلاثة الباقية ، حيث ينتهي الصف العاشر بقبة صغيرة نجمية ذات ثمانية رؤوس (١٩) .

ومن دراسة العناصر المعمارية والزخرفية للقبة اضافة الى الروايات الاستطراذية نستطيع تنسيب تاريخ بنائها الى القرن السادس الهجري . هذا وان المرقف يحتوي على خمسة قبور اضافة الى قبر السيدة زمرد خاتون .

(١٨) عطا العديشي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

(١٩) عطا العديشي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

قبة ضريح السهروردي

تقع في الجانب الشرقي من مدينة بغداد « الرصافة » بالقرب من الباب الوسطاني احد ابواب مدينة بغداد الذي لا يزال قائما (٢٠) وفي المحلة التي تنسب اليه وهو الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر السهروردي المدفون في المقبرة الوردية (٢١) .

في الاصل يتكون البناء من غرفة الضريح والحق بها مؤخرا مسجد يعود تاريخ بناءه الى سنة ١١٧٧ هـ ، لها مدخلان الاول وهو الباب الرئيس من داخل المسجد تعلوه كتابة تحمل تاريخ اصلاح القبة ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) جدد هذه العمارة المباركة الشريفة لضريح الشيخ القسوة الرباني خطب الاولياء والعارفين شهاب الدين عمر ابن محمد السهروردي روض الله مرقده محمد ابن رشيد اصلح الله شأنه وذلك في شهر سنة خمس وثلاثين وسبعمائة والحمد لله وحده وصلواته على نبيه محمد وآله) انظر صورة رقم (٤) .

والثاني يدخل من مجاز اضيق الى البناء سنة

٧٣٥ هـ

(٢٠) الباب الوسطاني : يسمى قديما باب القرية وهو احد ابواب سور الجانب الشرقي الأربعة . وظل معظم هذا السور قائما مع ابوابه الى عهد قريب حيث اندثر على عهد الوالي مدحت باشا . لم زالت الاسماء الباقية منه مع الابواب بعد ذلك ولم يبق منه غير باب واحد في جهته الشمالية الشرقية وهو الباب الوسطاني الذي رفعت مديرة الآثار وانخلت منه متعلا للأسلحة القديمة في سنة ١٩٢٩ .

(٢١) أبو حفص عمر بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عمويه واسمه عبدالله البكري الملقب بشهاب الدين السهروردي . ويصل نسبه الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان خطيبا شافعي المذهب شيعيا صالحا ورعا كبير الاجتهاد في العبادة والرياسة وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية وصحب منه ابا النجيب وعنه اخذ التصوف والوعظ والشيخ ابا محمد عبدالقادر صالح الجيلي وغيرهما من الشيوخ وعقد مجلس الوعظ سنين ، وكان شيخ الشيوخ ببغداد ، وتوفي سنة اثنين ولاتين وستمائة ببغداد ودفن بالوردية . ابن خلكان / وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٤٦ . دار الفكر - بيروت .

تقوم القبة على غرفة مربعة الشكل ابعادها ٤/٧ م ٤/١٠ م خالية جدرانها من الزخرفة على علو ٦/٥ م حيث تزين الجدران دخلات عددها اثنا عشرة دخلة تلف مع جدران الغرف تحيط بها اعمدة خمسة من هذه الدخلات تتوج قسما منها عقود مفصصة والاخر عقود مدببة . يعلوها صفان من المقرنصات يقوم فوقها غطاء القبة تزينه كتابة حديثة العهد . انظر الشكل رقم (٢) .

ومن الخارج فان ظاهر القبة مكون من احد عشر صفا من فوق المنحني الذي تقوم عليه القبة . فهناك اختلاف في مقرنصات القبة الخارجية عنها في الداخلية . صورة رقم (٥) .

فتكون قبة السهروردي مكونة من قبتين الاولى وجه المخروطية وهي الاصلية والثانية اضيفت فيما بعد وهي في باطن القبة الاولى وبينهما فراغ .

وفي سطح المسجد وعلى الواجهة الخالية للقبة من الخارج شريط كتابي :

فانظر الى اثار رحمة ربك كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير . امر بتجديد بعد ثورة... صورة رقم (٦) .

اما تاريخ بناء القبة استنادا الى الرواية التاريخية حيث ذكر د . مصطفى جواد ان احمد ابن عبدالله البغدادي ذكر في كتاب اصول الادب والتاريخ م ١٦ ص ٢٢ عن حوادث سنة ٦٢٢ وفيها توفي الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر السهروردي . ودفن قريبا من الباب الوسطاني داخل بغداد وعقد على قبره اضافة الى هذا وعلى ضوء الصيانة التي اجرتها دائرة الآثار مؤخرا حيث اظهرت لنا زخارف بنائية (٢٢) ملونة وصفوف المقرنصات فاستنادا الى اسلوب رسم الزخارف البنائية وطريقة تصفيف المقرنصات يمكن نسبة بناء القبة الى سنة ٦٢٢ هـ وهي سنة وفاة الشيخ السهروردي (٢٢) .

(٢٢) د . مصطفى جواد : العمارات الاسلامية العتيقة سوم م ٢ سنة ٤٧ .

(٢٣) عطا الحديشي وهناء عبدالخالق / الباب المخروطية لـ العراق .